

ذكريات مدرسية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

سأقتصر في هذا الفصل على طائفة من الذكريات تخيرتها من عهدين — عهد كنت فيه تلميذاً وعهد آل كنت فيه مدرساً — وسأكتفي بالمعالم الكبرى والخطوط الرئيسية التي تنبئ عن التفاصيل ، ولست أرى إلى غاية من هذا التصوير سوى ما يمكن أن يستفاد من مقابلة عهد بمهد ومواجهة ماضٍ بمحاضر . فشأننا يمكن بسهولة أن نتصوروا حال التعليم الابتدائي إذا قلت إن تلميذاً كان معنا في المدرسة نال الشهادة الابتدائية فعين في السنة التالية مدرساً لنا في السنة الرابعة التي تعد لتيل الشهادة الابتدائية . وأبأن من هنا في الدلالة أنه كان يدرس لنا ما كان يسمى « الأشياء » وهي عبارة عن معارف عامة وكان تدريسها يومئذ باللغة الإنجليزية . وأرسم خطأ آخر تم به الصووة فأقول إن ناظرنا كان يقول عن نفسه إنه جاهل جاهل ولكنه إداري إداري ، وكان حديث عهد برتبة البيكوية فكانت عبارة « يا سعادة البك » تنفر كل ذنب وتحو كل خطيئة . وليس أقدر من الصنار على التنفطن إلى مواطن الضعف في الكبار ، وليس أعرف بالتعلم من تلاميذه . وحسبه كشفاً لستره أن مئات من السيون تخصصه كلما بدا لها ، وأن مئات من الألسنة التمرارة لا تنفك تلغظ بما أدرخته رؤوس أصحابها الصغيرة . وأذكر أنني كنت ألعب تلميذاً فشتمني فضربته بسلسلة مفاتيح تقطعت جلد وجهه ، فذهب يمدو إلى الناظر والدم يسيل من جرحه وقال له وهو يبكي : « يا أفندي ابن عبد القادر ضربني » فأسرها الناظر وبث يطلبي وسألني لماذا فعلت ذلك ؟ فقلت : « يا سعادة البك إنه شتم أبي » وأنكر المضروب وقال : « لا والله يا أفندي » وتكرر من المضروب نعم الناظر بالأفندي وتلقيه له بسعادة البك ، فضاقت صدر الناظر جداً وأهوى على المضروب بمخزراته وهو يقول : « أفندي في عينك قليل الحياء » ولا أحتاج أن أقول إنى نجوت مما كنت أستحقته من العقاب وإن الفضل في نجاتي إنما كان لكوني لم أنس « يا سعادة البك » وأن خصمي نسيها

وأوفدني إليه التلاميذ يوماً لأرجو منه أن يسمح لنا بزيارة حديقة الحيوانات مجاناً فدخلت عليه وسلمت وهدت بيا سعادة البك ورفعت إليه رجاء الفرقة فدق صدره بكفه وقال : « حيوانات حيوانات إنه يا ابني ... أسد فك السلاسل نهش عيل منكم نبيق تقول يا مين ؟ »

فلم نزر حديقة الحيوانات كما لم يرها ناظرنا الذي كان يومئذ أن الأسود فيها تربط بالسلاسل ودخل علينا مرة ونحن نتاقى درساً في الحساب فوجد المدرس يعل علينا مسألة خلاصتها أن فلاناً أقرض فلاناً مبلغاً من المال بفائدة كذا في المائة ، فاستوقفه الناظر وقال لنا إن المسألة غلط ، وطلب منا أن نبين موضع الغلط فيها ، ويظهر أن المعلم كان أعرف منا بالناظر فقد اكتفى بالانقسام ، ورحنا نجيب بما ينظر لنا والناظر يرفض كل جواب . وأخيراً التفت إلى المدرس وقال له : « يا فلان أفندي المسألة كذب في كذب فأرجو ألا تعلم الأولاد الكذب مرة أخرى » وخرج

وكان في كل مدرسة فرقة للعب الكرة ولكن أعضاء هذه الفرقة لم يكونوا جميعاً من التلاميذ ، فاني أذكر أن المدرسة جمعت من كل تلميذ منا خمسة قروش لتدفع للوزارة « المصروفات المدرسية لرجل ضخم عملاق حليق اللحية والشاربين أحمر الوجه ليلب مع الفرقة في المباريات مع المدارس الحكومية الأخرى ، وكان هذا العملاق الخفيف يجيء إلى المدرسة وقت الظهر ويخرج منها بعد النداء ، وكانت مائدته تزدان بأنواع من المخلل يؤتى له بها خاصة . وكان إذا أحب أن يبق في المدرسة نصف ساعة أو ساعة لا يجلس إلا في غرفة المدرسين وهناك تقدم له القهوة والسجائر فيشكر ذلك بهزة من رأسه ، والساق على الساق والسيجارة في فمه انتظاراً لمن ينهض إليه ليشمها له من المدرسين . وكنا نحن نتراحم على الباب والنوافذ لنفوز برؤية هذا المنظر

أظن هذه الخطوط كافية لرسم صورة واضحة لمدرستنا الابتدائية الحكومية في ذلك العهد . والآن أنتقل إلى طائفة أخرى من الصور للمدارس الثانوية

كان التعليم الثانوي انتقالاً بأدق المعاني فقد صار كل ما في المدرسة إنجليزياً — الناظر والمدرسون والتعليم — ما عدا اللغة

المرية . وأنا إلى هذه اللحظة لا أعرف كيف كنت أنجح في الامتحانات ، وأكبر ظني أنهم كانوا يترقون بنا ويمطفون علينا ويتساهلون معنا ويتركوننا ننجح على سبيل الاستثناء . وأدع غيري وأقتصر على نفسي فاني أعرف بها ، فأقول إنني ما استطت قط أن أفهم علوم الرياضة أو أن أقدر فيها على شيء ، ومع ذلك كنت أنتقل من سنة إلى أخرى بلا عائق . وكان الأساتذة يختلفون ففهم النظم ومنهم الرقيق ، وأذكر أن أحدهم كان يذكرني درسه بالكتاب الذي حفظت فيه القرآن الكريم ، فقد كان يعلى درس الجغرافية ، فإذا كان الدرس التالي طالبناه محفوظاً عن ظهر قلب ، وكان يقف أمامه التلميذان والثلاثة دفعة واحدة وعلى مكتبه الكراسي والتلاميذ يتلون وهو يسمع ، ثم يضع في كل ركن واحداً من المحافظين ليمتحن زملاءه . وكنت لا أستطيع أن أحفظ شيئاً عن ظهر قلب فكنت أحبس بعد كل درس في الجغرافيا حتى كرهتها وكرهت حياتي كلها بسببها . وكان لنا مدرس آخر من أطرف خلق الله وأرقهم حاشية وأعفهم لفظاً ، فكان إذا ساءه من أحداً أمر وأراد أن يوجهه قال له : تهج كلمة بليد مثلاً أو مجنون أو غير ذلك كراهة منه لاسناد الوصف إلى التلميذ مباشرة . ولم يكن تدريس اللغة العربية خيراً من تدريسها في الوقت الحاضر ولكننا كنا أقوى فيها من تلاميذ هذا الزمان — لا أدري لماذا . وكان الفتنس الأول لغة العربية المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، وكان من أعلم خلق الله بها وبالصرف على الخصوص ، وكان رجلاً طيباً ووقوراً مهيباً ، فكان إذا دخل علينا يسرع للمدرس إليه فيقبل يده فيدعوه الشيخ ، ولا نستغرب نحن شيئاً من ذلك بل نراه أمراً طبيعياً جداً . وأعتقد أن منظر أسانذتنا وهم يقبلون يد الشيخ حمزة كان من أهم ما عرس في نفوسنا حب معلمينا وتوقيرهم ، فاني أراقي إلى هذه الساعة أشعر بحنين إلى هؤلاء المعلمين ولا يسمى إلا إكبارهم حين ألتقي بواحد منهم وإن كنت لم أستفد منهم شيئاً يستحق الذكر . ومن لطائف الشيخ حمزة أنه كان يقول ملاحظاته على المعلم على مسمع منا ، ولكنه كان لا يكتب في تقريره إلى الوزارة إلا خيراً . وقد اتفق لي بعد أن تخرجت في مدرسة المعلمين وعينت مدرساً في المدرسة السعيدية الثانوية أن جاء الشيخ حمزة للفتيش فاعتتمت

هذه الفرصة وقلت : « يا أستاذ ، ما هو الاسم العربي الصحيح لهذا الدخان الذي نسميه الدخان تارة والتبغ تارة أخرى » . فقال : « أنظرنى يا سيدى حتى أنظر في الكناشة » . وأخرج مما بلى صدره تحت الغفطان كراسية ضخمة لا أدري كيف كانت مخبئة غير يادية وقلب فيها ثم أنشد هذا البيت :

كأنما حننوا حصا قوادمه أوأم خشف بذى شت وطباق
ومضى عنى . وفكرت أما في كلمة الطباق التي جاء بها الشيخ .
فاستحسنها ورأيت أنها على العموم خير من كلمة التبغ التي نرب
بها اللفظ الانجليزي أو الفرنسي « توباك أو توباكو »

ومن حوادث الشيخ حمزة معى أنى كنت أودى الامتحان الشفوى في الشهادة الثانوية وكان هو رئيساً للجان اللغة العربية ، فلما جاء دورى اتفق أنه كان موجوداً ، فلما انتهت المطالعة وجاء دور المحفوظات وكان لما مقرر مخصوص سألني ماذا أحفظ . وكنت في صباح ذلك اليوم قد قرأت خطبة قصيرة للنبي صلى الله عليه وسلم فطلت بذهني وألهمنى الله أن أقول إنى أحفظ خطبة للنبي ، ففرح الشيخ جداً وخلع حذاءه وصاح « قل يا شاطر . قل يا شاطر فتح الله عليك » وسترني الله فلم أخطيء ، فاكتفى الشيخ بهذا وأعفاني من النحو والصرف والاعراب

ولكنه في مرة أخرى كاد يضيع على سنة . وكنت طالبا في مدرسة المعلمين وكانت لجنة الامتحان في اللغة العربية برياسته فقال أحد إخواني بعد خروجه من الامتحان : إن الشيخ حمزة يفتح كتاب النحو والصرف ويطلب من الطالب أن يتلو الفصل الذى يقع عليه الاختيار . ولم تكن ندرس إلا نحواً ولا صرفاً في المدرسة لأن الدراسة كانت مقصورة على الأدب ، فأيقنا بالنشل . وجاء دورى فدخلت وأنا واثق من الرسوب وجلست أمامه فناولني كتاب مقدمة ابن خلدون فقرأت . ولا أزال أذكر فاتحة الكلام وهي « اءلم أن المدون على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها » الخ . فقال : ضح الكتاب . موضعت ، فسألني عن المدون والفيلين عدا واعتدي وانتقلنا إلى الصيغ المختلفة التي يكون عليها « الفعل » « اعتدى » مثل « اعتديا » لماضى الثنى و« اعتديا » للأمر ، فسألني لماذا كان الماضى بالفتح والأمر بالكسر فلم أعرف لهذا سبباً وقلت إنه لا سبب هناك سوى أن العرب

منى بها . ولكنى لم أفعل بل اكتفيت بأن دعوت الفراش فحمل هذه الأدوات ووضعها في مكانها ثم بدأ الدرس . واتفق يوماً آخر أن دخلت الفصل فاذا رائحة كريهة لا تطاق ، وكان الوقت سيئاً والجو حاراً جداً فصاعف الحر شعورى بالتنقيص من هذه الرائحة الثقيلة . وأدركت أنها هي المادة التي كنا ونحن تلاميذ نضمها في الدواة مع الخبز فتكون لها هذه الرائحة الزعجة . فقلت لنفسي إنهم ثلاثون أو أربعون وأنا واحد ، وإذا كانت الرائحة الفبيحة تنفي نفسي فانها تنفي نفوسهم مني أيضاً . فخالم لم يس خيراً من حالى ، والاحساس المنب الذي أعانيه ليس قاصراً على ولا أنا منفرد به ؛ وإنهم لأغبياء لأنهم أشركوا أنفسهم مني وقد أرادوا أن يفردوني بهذه المحنة . والفوز في هذه الحالة خليف أن يكون لمن هو أقدر على الصبر والاحتمال، فتجاهلت الأمر وصرت أغلق النوافذ واحدة بعد أخرى لأزيد شعورهم بالضيق والكرب فلا يعودوا إلى مثلها بعد ذلك ، وقد كان . تصبرت وتشددت ودعوت الله في سرى أن يقوينى على الاحتمال ، ومضيت في الدرس بنشاط وهمة لأشغل نفسي عما أعاني من كرب هذه الرائحة اللعونة . وكنت أرى في وجوههم أمارات الجهد الذي يكادونه من التجلد مثل فأسر وأغتبط وأزداد نشاطاً في الدرس وإغضاء عمن يرفعون أصابعهم ليستأذنوا في الكلام فقد كنت جازقاً أنهم إنما يريدون أن يستأذنوا في فتح النوافذ عسى أن تحف الرائحة ويلطف وقعها . وظللنا على هذا الحال نصف ساعة كادت أرواحنا فيها ترهق، ورأيت أن الطاقة الانسانية لا يسعها أكثر من ذلك ، وأن التلاميذ خليقون أن يتمردوا إذا أمررت على عنادى المكتوم ، واغتتمت فرصة إصبع مرفوعة وسألت صاحبها عما يريد، فقال إنه يريد أن يفتح النافذة لأن الحر شديد . قلت افتحها ، وفتحت النوافذ كلها . وتشهدنا جميعاً واستأنفتنا الدرس ولكن بفتور لشدة ما قاسينا من رياضة النفس على احتمال ما لا يطاق . واتفق الدرس وخرجت فخرج زرائى ثلاثة أو أربعة من التلاميذ ولحقوا بي ، وقال لي واحد منهم إنهم بأسفون لما حصل وإن الأمر كان مقصوداً به غيري ، وإنهم يطلبون الصفع ، فسرت ولكنى تجاهلت وسألهم عما يمنون . قالوا: الرائحة الكريهة التي كانت في الفصل . قلت: رائحة... أى رائحة؟ إننى مزكوم ولهذا

نظفوا بهما هكذا . فدهش لهذا الجولب وقال: ولكن لهذا سبباً، قلت: إن الائمة سبقت النحو والصرف، وكل هذه النواع مدموعة بمدعا ، وما دمت أنطق كما كان العرب يفعلون فان هذا يكفي ولا داعى للبحث عن سبب مختلق . فغضب وظهر هذا على وجهه فلم أبال بتفضيه، وحدثت نفسي أنه خيرى وأكرم أن أسقط بخناقة من أن تكون علة سقوطى الجهل . وأصررت على رأيى وكاد يحدث مالا يحمد، لولا أن المرحوم الشيخ شاويش — وكان عضواً في اللجنة — تدارك الأمر، فقد نظر في ساعته ثم التفت إلى الشيخ حمزة وقال: « الصبر واجب يا مولانا » فهض الشيخ وهو يقول « أى نعم » وذهب للصلاة ونسبى فكان في هذا نجاتي . وقد حفظت هذا الجميل للشيخ شاويش ، وكانت هذه الحادثة بداية علاقتى به

ولم تكن المواد كثيرة أو طويلة في مدرسة الملمين ، ويكنى أن أقول إنه كانت لنا في الأسبوع ثمانى ساعات لاتتاق فيها أى درس، فترك هذا التخفيف وقتنا كافياً للمطالمة الخاصة؛ وكان أساتذتنا وناظرنا يشجعونا عليها بكل وسيلة ولا يفوتهم مع التشجيع والحث أن يوجهونا وينظمو لنا الأمر ، وأحسب أن هذا نعمنا جدا

وقد صرت معلماً بعد ذلك وظللت أشتغل بالتعليم عشر سنين؛ خمس منها في الوزارة وخمس في المدارس الحرة، وفي هذه السنوات المشتر لم أحتج أن أعاقب تلميذاً أو أومخه أو أقول له كلمة نابية . ولم يقصر التلاميذ في محاولة الما كسة ولكنى كنت حديث عهد بالثلمة وبشقاوة التلاميذ، فكنت أعرف كيف أقم هذه الرغبة الطبيعية في الشقاوة . وكانت طريقتى أن أجازوز عن الذى لاخير منه فلا أشغل به نفسى والتلاميذ، مثال ذلك أن يحتاج التلميذ إلى قلم أو نشافة فيطلبها من جاره ويكلمه في ذلك فلا أعد هذا من الكلام الذى لا يباح، ولا أقيم ضجة من أجله . وقد حدث يوماً وأنا مدرس في المدرسة الخديوية أن دخلت فرقة فألفت على مكنتى كل أدوات الرياضة مرصوسة على نحو لا شك أنه متممد، وكان تلاميذى لا يجهلون كرمى للرياضة، وكنت أنا لالأ أكتهم أي أعد نفسى جاهلاً بها حاراً في علومها؛ وكان غرضهم من رص هذه الأدوات أن يباثون عسى أن أثير الضجة التي يشهونها ولا يفوزون

حرمة البيان

للأستاذ عبد المنعم خلاف

لو كان الأدباء «إلهيين» يقدمون لله الأزهار التي يقتطفونها بأقلامهم من حديثه قبل أن يقدموها للناس ، لحسبوا للحق والشرف والجمال الأصيل أكبر حساب ، ولاستحيوا أن يقدموا لعين الله النافذة العالمة كلاماً باطلاً أو دنيئاً أو زائفاً ... ولكن كثيراً منهم رضوا بأن يكونوا «وثنيين» ينحتون من الألفاظ أسناماً يزوقونها ويصرفون الانسانية بها عن وجه الله في بعض الأحيان ...

فهم يقدمون أزهارهم للأعين الكليّة البليدة مُنفلين «الفنان الأعظم» الذي يجب أن يرفع إليه كل عمل جميل شريف حتى يوقع عليه بطابه ...

ما هو الجمال؟ ما هو الحق؟ ما هو الشرف؟ لولا الله ...
كل المعايير والمواعين ساقطة باطلة ببليّة إذا لم تكن في يده هو!

كل الصدق كذب ... وكل الخير شر ... وكل الحق باطل
إذا لم يقله لنا هو!

ما الفرق بين صانع الكلام وصانع الأحذية إذا كان مدار الكلام هو الخبز ... أو إرضاء جمهور الحرقاء أو الشهرة الجائفة التي لا تشبع أبداً؟

إن أقرأ بعض صحف الكلام فأشعر أنها من حقايرها وذلتها -
كالتل ... وكالتل البالية القذرة لكثرة ما فيها من خروق عقل صاحبها أو خروق خلقه ...

إن حاسة البيان جانب مقدس لأنها خاصة الانسان المترجم عن الإلهية ، فيجب أن يكون فيها ذلك السيل الخلق في الأصوات أو في المطور

وإن في حديقة الله أعجيب وتهاويل وحقائق كبيرة لا يسمع

لم أشم شيئاً فلا عمل لاعتذاركم. ومضيت عنهم، وكان هذا درساً نافماً لهم ولو أنى عاقبت أحداً لما أثمر العقاب إلا رضام عن نفوسهم لأنهم استطاعوا أن ينصموا على ، وأن ينجح من عندهم الطيبى في مثل سنهم

وفي آخر سنة من اشتغالي بالتدريس توليت أمر مدرسة ثانوية فقلت للأساتذة: إنى ألقيت المقويات جيماً فلا حبس ولا عيش حاف ولا شيء مما اعتاد المعلمون أن يماقبوا به التلاميذ . ونظرتي هي أن المدرس الذي يحتاج إلى معاقبة تلميذه لا يصلح لهذه المهنة وخبر له أن يشتغل بغيرها ، وأن العلاقة بين المعلم وتلميذه ينبغي أن تقوم على المودة والاحترام ، وأن يكون أكبر وأقوى عامل فيها هو شعور التلميذ بأن المدرس والده يبنى له الخير ويخدمه ويفتح له نفسه ويقوى مداركه وشمى استمداده ، وأنه لا يلزمه بدرس ولا يفرض عليه شيئاً بل يرضيه في الدرس ويحبب إليه التحصيل . وعلى هذا فليس لأحد من المعلمين أن ينتظر منى أى معوة على ضبط النظام، وقد كان . قضينا في هذه المدرسة سنة كاملة لم يشمر فيها التلاميذ بسلطان أو سطوة، وإنما شمروا أنهم أبناء لنا وأتينا إخوان كبار لهم وأصدقاء ناقون ولم أكتف بهذا بل ألقيت «الجرس» الذي يدق إيداناً بابتداء الدرس أو انتهائه لأنى لم أر حاجة إليه بعد أن أصبح التلاميذ يحرصون على الحضور والمواظبة من تلقاء أنفسهم ويدافعون عنهم للمدرسة ورضيتهم في الوجود بها مع إخوانهم المدرسين حتى لقد كان الواحد منهم يمرض فيحضر ، وبهنا استثنيت أيضاً عن الدفاتر الكثيرة التي تستعمل في المدارس والتي تحتاج إلى موظفين كثيرين لا داعي لهم . وقد كنت أحب أن أظل في هذه المدرسة لأرى نتيجة التجربة، ولكن الحركة الوطنية بدأت في صيف ذلك العام وجرفتنا جيماً تيارها الزاخر فهجرت التعليم إلى الصحافة . ولو عدت إليه الآن لكان من المحقق أن أخفق فقد اختلف الحال جداً وانقلبت الأوضاع .

إبراهيم عبد القادر المازني